في محاكم الالمان

وعقاب مس كافل

كتب الدكتور هوستله العالم الطبيعي البلجيكي في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية واصفاً محاكمة الالمان لهُ ولمس كافل وغيرهما من الذين اتهموا بتجنيد الجنود من الانكليز وهم في بلاد البلجيك. فرأينا ان نقتطف بعض ما كتب ليبقى جزءاً من التاريخ الصحيح لما فيهِ من الدقة التي قلما نراها في التواريخ قال : —

استيقظت في السابع عشر من اغسطس سنة ١٩١٧ الساعة السابعة صباحاً وانا اسمع صوت قرع شديد على باب بيتي واتت الخادم وقالت لي ان بالباب رجلين يطلبان الكلام معك

وكنت قد سمعت منذ بضعة ايام ان مس كافل رئيسة مدرسة الممرضات البلجيكيات والمسيو سڤرين الصيدلاني قد قُبض عليهما . وكنت اعلم انَّ مس كافل اتلفت كل المراسلات التي دارت بيني وبينها مما يتعلَّق بالمساعدة التي كنت اساعدها بها ولكنني كنتُ لا ازال موجساً شراً. ولم اكد اسمع صوت الخادم حتى سمعت واحداً يتول بصوت جهوري « لا وقت لنا للانتظار » وجعل يصعد على السلم الموصل الى غرفتي ففتحتها لاستقبلهُ ولما وقع نظرهُ عليَّ سكن غيظهُ وقال ان اسمهُ هنري ثم بشَّ في وجهي وقال اني مأمور لاطلب منك ان تشهد في دعوى على المسيو سڤرين ومس كافل ولكن لا بد لي قبل ذلك من تفتيش بيتك »

واقام ساعتين فتش فيهما كل غرفة وكل خزانة وكل صندوق فلم يجد شيئاً اخشى منهُ. واخيراً قال هلمَّ معي وسنرجع عند الظهر . وكان معهُ سيَّارة فصعدي اليها وجلس الى جانبي وقال لي ان مس كافل والمسيو سڤرين الصيدلاني اخبراهُ بغيرتي الوطنية. ثم استطرد الى نظام التجنيد الذي اكتشفهُ حديثاً وذكر اسماء كثيرين من معارفي . فقلتُ في نفسي لقد قضي عليَّ وتعذرت النجاة . ومررنا قرب بيت سڤرين فاشار اليهِ وقال هوذا بيت صديقك المسيو سڤرين وهو رجل هام يعرف كيف يدافع عن اعمالهِ الوطنية . ونحن عارفون بكل ما فعلتم ونصيحتي لك ان تقول الحق فان اصحابك اعترفوا كلهم ووقَّعوا اعترافهم بايديهم . والتُّهم

التي اتُّهمتَ بها طفيفة وليس كذلك تهم اصحابك فلا خوف عليك . ويجب ان تعلم ان القوانين الحربية الالمانية تتساهل جداً مع الذي يتكلم الصدق ولكنها صارمة جداً على الذين يحاولون ويكذبون

***

ولم يكن اسم هذا الرجل دنري كما ادعى بل كان اسمهُ بنخوف فتفرستُ في وجههِ واذا هو يهودي وكان يحسن الفرنسوية كابنائها فقرّبت تنصي مما رأيتهُ فيهِ من الخسة والمكر والنفاق فلم اقل شيئاً ولكنني عرفت انني أُخذت وقد لا انجو. ولما وصلنا الى شارع البارلمنت وقفت السيارة امام بناء كبير فيهِ ديوان البوليس الحربي الالماني فسلّمني الى الملازم الذي هناك وكان هذا يحسن الفرنسوية ايضاً فقال لي ان سبب القبض عليك هو ما قرّرهُ عنك المسيو سڤرين ومس كافل وذلك اولاً انك اويت جنوداً من الانكليز في بيتك . وثانياً انك اتيت بجنود من الانكليز الى المسيو سڤرين وطلبتَ منهُ ان ينزلهم في بيتهِ فاجاب طلبك . وثالثاً انك اعطيت مس كافل مبالغ طائلة من النقود لكي تستخدمها في ارسال الجنود الى اصحابهم في ميدان القتال

فقلت لهُ انني انكر بتاتاً ما قيل من اني اويت جنوداً من الانكليز في بيتي بل اقسم لك انني لم ارَ في حياتي جندياً انكليزياً

فقال الظاهر ان هؤلاء الرجال لم يكونوا بلباس الجنود

فقلت « اني لا اتكلم قصد المواربة والتضليل بل اؤكد لك انني لم ارَ احداً من جنود الانكليز لا قريباً ولا بعيداً لابلبس الجنود ولا بغير لبس الجنود. وقولي هذا ينفي التهمة الثانية » وقد اكدت هذين الانكارين لعلي اقف على ما قرّرهُ المسيو سڤرين ولكنهُ لم يرني اياهُ مع انني طلبتُ مراراً ان اراهُ بل قال يمكنك ان تتناظر في هذه التهمة مع المسيو سڤرين نفسهِ الذي قال انهُ انزل الجنود في بيتهِ بناء على طلبك (اما انا فلم اطلب ذلك منهُ بل من زوجتهِ) وقد ايدت مس كافل ذلك

فقلت وهل قالا ايضاً انني انا انزلت جنوداً من الانكليز في بيتي

فقال لا ولكن هذا يستنتج استنتاجاً لانك لا تستطيع ان تدرب الجنود ما لم تنزلهم في بيتك اولاً

فقلت ان هذا هو الامر الذي اريد ان اناقش المسيو سڤرين فيهِ ولذلك اطلب ان تجمعوني بهِ

فقال وعلى كل حال لا تستطيع ان تنكر انك اعطيت مس كاڤل نقوداً لكي تسفر الجنود

فقلت اني انكر كل الانكار كوني اعطيت مس كاڤل نقوداً لهذه الغاية

فقال اراك يا مسيو هوستله تجيب عن مسائلنا قصد تضليلنا لا قصد اظهار الحقيقة وهذا لا ينطبق على شهامتك وغيرتك الوطنية ولذلك اقول لك انك موقف وان هذا التصرف قد ينالك منهُ ما لا تحمدهُ

فقلت انهُ لم يخفَ عليَّ مرادك وهو انك تريد ان اعترف لك بشيء يكون سبباً لايقافي . واريد ان تعلم ان اجوبتي كلها لا يقصد بها التضليل بل هي مطابقة للواقع تماماً

فقال وكيف ذلك

فقلت اولاً انني انكر اعطائي الدراهم لمس كاڤل لكي تسفر الجنود الذين كانوا في مدارسها الى ميدان القتال ولكنني لا انكر انني اقرضتها بعض النقود لكي تنزل في بيتها رجالاً أُنزلوا في بيتها ولو رغماً عنها

فقال انك لم تعطِ مس كاڤل النقود لهذا الغرض . وهاك اعترافها الموقع باسمها وانت تعرف الالمانية فاقرأهُ

فقرأت ما قدمهُ اليَّ وهو موقع باسمها واسم سڤرين . مع اننا كنا اتفقنا ان لا نعترف بشيء ولا نذكر اسم احد . ولم اكد اصدق انها فهمت ما وقعتهُ لانهُ يثبت التهمة على كثيرين ولاسيما عليها . وقلت انني لا اتحمل الاَّ مسؤولية ما اقررهُ انا نفسي فان كانت مس كاڤل فهمت ان لاعطائي النقود لها غاية غير الغاية التي قصدتها انا فذلك مما يسؤني واريد ان اجتمع بها حتى تتفاهم . فان التوسع في تفسير المقاصد يفضي الى التضليل ولذلك لا استطيع ان اخرج عن تقرير الحقيقة كما هي تماماً

قلت ذلك وانا لا اعير انطباق ما قلتهُ على ما فعلهُ الالمان في استنطاقها فانهم استعملوا كل الحيَل في القاء الاسئلة واستخلاص الاجوبة وتحريفها في الترجمة حتى وافقت غرضهم كما اتضح لي بعدئذٍ

فقال بنخوف كم هي النقود التي اعطيتها لمس كافل
فقلت مئتا فرنك او ثلثمائة
فقال كذبت فان مس كافل قالت انهُ اكثر من ذلك كثيراً
فقال لهُ الملازم كم قالت (وكان في اكثر الوقت صامتاً)
فقال بالالمانية الف فرنك
فصرخت قائلاً كم
فقال ان ما لدينا من الادلة يجعل المبلغ اكثر من ٦٠٠ فرنك
فقلت انني اطلب ان تجمعوني بمس كافل
وهنا انتهى الاستجواب وتركتُ الى ان اتم بنخوف عملهُ فناداني وقال بلطف هلمّ بنا وفتح لي باب السيارة
فقلت لهُ الى اين فقال الى سنت جلس (وهو سجن)

***

مرّت ثلاثة ايام وانا في السجن لا عمل لي الاَّ التفكير والخوف من ان يقبضوا على اهلي فانهم اذا قبضوا على واحد بتهمة وقعت الشبهة على كل اصدقائهِ ولاسيما اذا وجدت اسماؤهم بين اوراقهِ ولو كانوا من ابعد الناس عن التهم . واي بنجيكي لم يعمل عملاً لا يعدهُ الالمان جريمة او اشتراكاً في جريمة وهم محتلون بلادنا . واخيراً فُتح باب غرفتي وامرني السجان ان اسير وراء جندي فاوصلني الى غرفة فيها ملازم البوليس وبنخوف ولما دخلت قال لي بنخوف لقد ظهر في قضيتك امر شديد الخطر فقلت وما هو . قال انك كنت تتعامل مع امرأة من البورينتاج (جهات مونس) وقد اوقفتنا على كل علاقتك معها ومع اناس من بلدها فلاحين ومعدّمين واخبرتنا ايضاً عن علاقتك مع عجاج اسمهُ لبيه ومع المسيو O وزوجتهِ وكل ما اخبرتنا بهِ مطابق لمذكرات مكتوبة في يوميتها ولما قالهُ جيرانها . وانت تعرفها وهي امرأة كبيرة الجسم منفوشة الشعر

فقلت اني اعرفها وامرها لا يضرني بل ينفعني

فاستغرب قولي لاسيما وانهُ كان يعتقد دائماً انني على جانب عظيم من الدهاء وقال كيف ذلك

فقلت ان الدراهم التي قبل في دفاتر مس كاتل انها هي كان المراد اعطاؤها لهذه المرأة تعويضاً لها عن خدمتها للرجال في بلدها فانها كانت تأتي بالجنود الانكليز من البوربناج الى وكسل لكي تصرف الخطر عن السكان الذين انزلوهم في بيوتهم

فقال وكيف عرفتها

فقلت عرّفني بها رجل لم اكن اعرفهُ

فقال لا يوجد رجل لا تعرفهُ فاصح لنا باسمهِ

فقلت اني اكرر ما قلتهُ وهو انني لم اكن اعرفهُ . جاءتني تطلب مساعدتي كما يحدث مراراً زمن الحرب اذ يستعين بك آخر لاقلّ سبب. جاءتني وذكرت لي اسمها ولم ارها بعد ذلك اما اسم الرجل فلن ابوح لكم بهِ

فاغتاظ بنخوف وقال الملازم انهُ لا يسمح بذلك. ولكنهما لما رأيا اصراري قالا الافضل لك ان تتأمل الحالة التي انت فيها . وستستجوب غداً او يوم الاثنين

وخرجا كلاهما من الغرفة ولكن بنخوف التفت اليّ وكأنهُ كظم غيظهُ وقال لي هل استلمت الرزمتين اللتين ارسلتهما زوجتك لك

***

وبعد اربعة ايام طُلبتُ لاجل الوقوف على اعتراقي امام بنخوف والملازم برغان والكاتب فسألني الكاتب عن اسمي وعملي وكتب ذلك في نسخ عديدة . ثم قال بنخوف « اخبرنا بكل ما لك من العلاقة في قضية مس كاتل » . فلم اكد اشرع في الكلام حتى اختلفنا وتخاصمنا فانهما كانا يحسبان ان اساس التهمة هو الامر الذي احسبهُ انا عرضاً من اعراضها فاردا ان ينسبا اليّ ان الغاية التي كنت ارمي اليها هي ارسال الجنود الى ميدان القتال اما انا فاصررت على ان غرضي كان المجيء بهؤلاء الجنود من ولاية البوربناج لان بقاءهم هناك يعود بالخطر على السكان كلهم نظراً الى الاسلوب الذي جرى عليهِ الالمان وهو الانتقام من السكان كلهم لجريمة يرتكبها بعضهم. فقلت ان غرضي كان مساعدة اولئك السكان الذين يستحقون كل مساعدة لتخليصهم من الورطة التي وقعوا فيها ولو لم يكن لي يد في وقوعهم فيها

فقال بنخوف اليك عن الروغان فانا صريح على الاقل لا اعوّج الامور

فقلت انهُ يسهل عليك ان تفسر اعمالي حتى تظهر فظيعة ويصير لعملك شأن كبير اما انا فلا مصلحة فيما يزيد عقابي

وبعد جدال طويل اتفقنا على صورة الاعتراف التالية وهي ان اعطائي النقود ساعد على ارسال الجنود الذين هربوا والذين تجندوا الى ميدان القتال مع الحلفاء

فقال بنخوف اذاً اردت ان تساعد الجنود الاتكليز الذين كانوا مختفين عند الفلاحين في البورينياج حتى ينجوا وقد سمعت عنهم من مدام ن ومن ثم ابتدأ اتصالك بمس كاثل والمرأة لويزا

فقلت نعم

فقال على جاري عادته الخبيثة من نصب الفخاخ للذين يستجوبونهم «اتعلم اننا وجدنا امس ان المسيو سولثه يقابل الناس سراً في امر التجنيد» . وغرضهُ من هذا القول ان يتهم اكبر اصحاب المعامل الصناعية في بلجكا الذي كانت لهُ اليد الطولى في تأليف لجنة الطعام. ولو استطاع بنخوف ان يصل الى هذا الغرض لوضع في يد الالمان اكبر وسيلة للقضاء على بلجكا اقتصادياً . فظهرت الاستغراب الشديد من قولهِ لانني كنت واثقاً ان تهمتهُ كاذبة فان المسيو سولثه كان حريصاً جداً لكي لا ينسب الى تلك اللجنة اقل شيء يستطيع الالمان ان يتذرعوا بهِ ضدها. وقال لي الملازم حينئذٍ اننا نحن الالمان ماهرون في اكتشاف الخبايا . فقلت لهُ اكذ يا حضرة الملازم اننا لا نشكو من قلة مهارتكم

ثم عدنا الى الاستجواب وكان عليَّ ان ابين مالي من العلاقة بستة من الرجال والنساء الذين كانوا يأتونني ويأخذون الدراهم مني . ولما اخذت في الجدال قال لي بنخوف بحدة انك ستندم على اضاعتك اياتا

فقلت لهُ ولرفيقهِ بتهكم لم يخطر ببالي ان ادوّن كل ما فعلت استعداداً لاستجوابي امامكم. هذا واكرر لكم القول انني اعطيت نقوداً لبعض الناس ولكن لم يكن عندي مكتب لتجنيد الجنود ومع ذلك فانني اوافق على المبلغ الذي ذكرتموهُ سواء كان اكثر من المبلغ الذي دفعتهُ او اقل منهُ

فقال بنخوف من اين اتيت بهذه النقود كلها اظن انك لم تدفعها كلها من جيبك

فقلت اصبت فان جانباً كبيراً منها اخذتهُ من اصدقائي

فقال من هم وما هي اسماؤهم

فقلت لا مانع لاسمائهم في هذه القضية فانهم عرفوا اني مشتغل بامر وطني وتقول اني افتر هذه النقود في افضل السبل وقد حرصت انا حتى لا اخبرهم بما يجعلهم عرضة لسوء العاقبة اذا اكتشفتم امرهم

فتركا هذا الموضوع وعادا الى مسئلة مس كاثل فانكرت اني دفعت لها كل المبلغ الذي قالا انه هي قالت اني دفعته لها وانكرت ايضاً اني انا اخذت الجنود الى بيتها وطلبت ان يجمعوني بها. ولم تتمكن من جعلها يكتبان انكاري هذا الا بعد جدال طويل. وعدت الى السجن منهوك القوى وعلمت ان غيري ايضاً من ينخوف الامرين

***

وهنا لا بدّ لي من كلمة عن مس كاثل قبل الكلام على محاكمتنا. فقبل معركة مونس اخذ الكان جماعة من جرحى الانكليز واسراهم الفارين وانزلوهم في بيوتهم وبعد قليل رأوا ان ازالهم في بيوتهم يعود عليهم بالضرر. وكان بين الجرحى كولونل من اركان الحرب شفي سريعاً واراد العودة الى جيشه فاتى به الى بركسل ولما وصل اليها وجد انهُ اضعف من ان يحتمل مشقة السفر ولم يجد ملجأ يلجأ اليه الاّ مدرسة الممرضات التي رئيستها مس كاثل فان هذه السيدة كانت قد اشتهرت بالبسالة والغيرة الوطنية. ثم شفي غيره من الجرحى فارسلوهم اليها الى ان يتيسّر من يوصلهم الى ميدان القتال لكن كان السفر يزداد صعوبة فكان بيتها من دسمبر سنة ١٩١٤ الى يوليو سنة ١٩١٥ مملوءاً بالجنود دائماً فحفتْ عليها وحذّرتها سوء العاقبة فكانت تقول لي ما من شيء يجعلني اقفل بابي في وجه هؤلاء الجنود الاّ اذا امتلأ تماماً حتى لا يسع فوق من فيه او تفدت نقودي فعجزت عن الانفاق عليهم. واستمرت على ذلك الى ان درى بها البوليس الالماني فاتّهمت بانها تجند البلجيكيين وترسلهم الى ميدان القتال اما هي فانكرت ذلك وقالت انها انما كانت مهتمة بايصال الجنود الى التخوم ومتى وصلوا الى هناك فهم وشأنهم. واتّهمت ايضاً بالتجسس فانكرت ذلك كل الانكار وهي صادقة في انكارها ولم تكذب لانها لم تتجسس مطلقاً. والحق انها لم تحاول التجنيد ولا التجسس وانما كان غرضها ان تنجي جنود الانكليز ثم جنود الحلفاء الذين يلتجئون اليها لمجرد

حبها لوطنها ونوع الانسان . ولقد انقذت من المرض والسجن مئات من الاسرى الفارين . نعم انها اعترفت بانقاذ مئتين فقط وردهم الى ميدان القتال ولكن كان لعملها فروع كثيرة ولذلك كان عدد الاسرى الناجين اكثر من ذلك كثيراً

المحاكمة

جاءني السجان صباح اليوم السابع من اكتوبر بقليل من الخبز والقهوة وقال لي كلْ سريعاً فانك ذاهب الى المحاكمة اليوم. فالتهمت ما قدّم لي وانا افكر في اهل بيتي ولا ادري متى استطيع ان آكل ايضاً ولكن لم يخامرني شك في انني اسلم وانجو وقت عقد الصلح. ثم سيرّ بنا من السجن اثنين اثنين يحيط بنا الحرس واركبونا سيارتين كبيرتين وكان الى جانبي رجل نحيف الجسم ابيض اللحية فقال اتوا بي كشاهد وقد مضى عليّ الآن شهران وانا في السجن فهل سمعتم بمثل ذلك. وامامي رجل وزوجتهُ ومدام C وتكاد يغمى عليها ولما وقع نظرها عليّ ابتسمت فقلت لها ما ذنبك قالت اويت بعض الانكليز لاغير . فقلت لها لا تخافي اذاً لا يقتلونك . فقالت اواثق انت فقلت لها نعم وحسبُكِ النجاة من القتل في هذه الايام. فقالت اصبتَ . ونزلنا من السيارة ومررنا اثنين اثنين في دار مجلس النواب الى مجلس الشيوخ فرأينا هناك نحو ثلاثين من المتهمين وكانوا قد سبقونا وكلهم تقريباً من العمال ثم جاء غيرنا من المتهمين . ودخلت فتاة بثياب سوداء ومعها رفيقة لها بثياب سوداء فقال لها رجل من البوليس هنا مكانك ايتها البرنسس . وكان امامنا مائدة طويلة فجاء ضابط حسن القوام حسن البزة وسار اليها ووضع خوذتهُ ومحفظة كبيرة من الاوراق . وهو القاضي الحربي وامرنا في يده . فنظر يمنة ويسرة كأنهُ فارس جاء لمبارزة خصمهِ وهو واثق بالفوز عليهِ . ودخل وراءنا جماعة كبيرة فرأيت بينهم رجلاً من معارفي ومعهُ رجل بدين قصير القامة فقلت لعلهُ المحامي الذي اتى ليدافع عني . ودخل بعض الضباط ووقفوا يتكالمون ثم اخرجوا كل الذين بثياب ملكية . وكان صديقي محامياً ايضاً ولكن لم يسمح لهُ بالبقاء وانما سمح للمحامي لانهُ يستطيع الدفاع بالالمانية. ونودي على كلٍّ منا باسمهِ وذكر كل محام ممن اتى ليدافع . ثم أمرنا بالخروج كلنا ما عدا من كان اول

ستأتي البقية